لدى الخديوي اسماعيل في حفل افتتاح قناة السويس العام ١٨٦٩[٩]؛ كما كانت نجمة الاحتفال رئيسة «جمعية استعمار فلسطين»، الامبراطورة أوجيني.

ولم يمض عامان على نشر كتاب لاهاران حتى نشر موشي هس كتابه «روما والقدس» بالألمانية، تحت تأثير انتصار حركة التحرر والوحدة في ايطاليا. وقد تلقّى هس، في صغره، ثقافة تلمودية في مسقط رأسه بون، في المانيا، وانصهر في المجتمع الالماني، ثمّ الأوروبي. ومع مطلع الأربعينات، عمل جاهداً في تنظيم الحركات العمالية في ألمانيا ونشر التعاليم الاشتراكية؛ ولهذا السبب أطلق عليه اسم «الحاخام الأحمر»؛ وتعاون، في هذا المجال، من حين الى آخر، مع كارل ماكس وفريدريك انجلز، ثمّ اختلف معهما، وانتقل من بلد الى آخر في أوروبا. ولم ينس هس، على الرغم من نشاطه في الحركات العمالية وتعاطفه مع حركات التحرر التي عاصرها، كما يبدو من كتاباته، أسس الثقافة التلمودية التي تلقّاها في صغره. وقد عادت تلك الأسس لتحتل مركزاً مرموقاً في تفكيره مع بداية شعوره بالكراهية تجاه المجتمع الالماني الذي نشأ فيه ونما اعجابه بمواقف فرنسا وسياستها. وقد رأى ان الطريق العملي للوصول الى حل للمسألة اليهودية يكمن في اقامة دولة يهودية. وحسب رأيه، سوف يحظى هذا المشروع بدعم فرنسا، لأن من مصلحتها تنفيذه؛ كما ان الدول الأوروبية الأخرى لن تعارض ذلك المشروع «الذي سوف يخلصها من سكانها اليهود. والدولة المقترحة لن تضم، في مطلق الاحوال، كل يهود العالم، وذلك على الرغم من ان حدود هذه الدولة سوف تمتد من السويس الى القدس، ومن ضفاف الأردن الى شاطىء البحر المتوسط، وستلتقي فيها كل الطبقات اليهودية، الأرثوذكس والتقدمية، الأغنياء والفقراء». وأعلن هس: «ان الساعة قد دقّت لاعادة الاستيطان اليهودي على ضفتي الأردن، حيث سيكون اليهود حاملي لواء المدنية الى شعوب آسيا البدائية»، ثمّ نصح اليهود بأن «يعملوا على تثقيف القطعان العربية المتوحشة والشعوب الافريقية»[١٠].

هنا كرّر هس ما سبق ان نشره لاهاران حول أطماع اليهود وأحلامهم ببعض الأراضي المصرية، والتي تبدأ بميناء السويس؛ كما ان الموقف العنصري من العرب اتضح في كتابيهما، والتزلف والنفاق لفرنسا، بسبب علاقة نابليون الثالث بخديويي مصر، سعيد واسماعيل. وانتقل التزلف والنفاق الى بريطانيا؛ ثمّ الى الولايات المتحدة الأميركية، بعد ذلك.

وكما تكونت «جمعية استعمار فلسطين» في باريس، فقد تكوّن، في الوقت عينه، العام ١٨٦٥، في بريطانيا «صندوق اكتشاف فلسطين». وقد عكف الأوروبيون، بشكل عام، والبريطانيون، بشكل خاص، على الاهتمام بفلسطين، ووجد هذا الاهتمام تعبيراً عنه في الرحلات والبعثات، الى جانب «جمعيات فلسطين»، بالاضافة الى نوع من الغزو التبشيري، من طريق الارساليات، لا يمكن وصفه الاّ بمظهر من مظاهر الصليبية المستترة. أمّا عن نشاط الصندوق وأعماله الاستكشافية، نجد ان الذين قاموا بالتنقيبات والاكتشافات كانوا من العسكريين، وبالتحديد من سلاح الهندسة الملكي. وقد تنقل معظمهم بين قبرص وسوريا وفلسطين ومصر والسودان؛ وعملوا في حقول للنشاط تتعدى مسألة اعتماد المبادىء العلمية في اكتشاف معالم الارض المقدسة. فالكابتن كوندر، مثلاً، جاء الى فلسطين، العام ١٨٧٣، وشرع يبحث عن مسرح المعارك التي دارت بين الفلسطينيين والاسرائيليين. وحين قامت الثورة العرابية في مصر، وقع عليه اختيار دائرة المخابرات لمرافقة الحملة البريطانية التي ارسلت لضرب الحركة الوطنية؛ كذلك انضمّ الملازم كتشنر الى فريق الاستكشاف، في العام ١٨٧٤ وكان في مصر العام ١٨٨٣، وقد سبق له ان قام بعمليات المسح في شرق فلسطين (شرق الأردن). تولّى كوندر المنطقة الغربية، وساهم وكتشنر في قياس، ومسح، منطقة وادي عربة بين الطرف الجنوبي للبحر